التّواصل التكنولوجي والاجتماعي برؤية نقدية هابرماس وباومان أنموذجان.

Technological and social communication with a critical view, Habermas and Baumann are two models.

سحنون سعاد*[1]؛ عمور عبد السلام.[2]

[1]- مخبر المجتمع الجزائري المعاصر؛ جامعة محمد لمين دباغين؛ سطيف2؛ (الجزائر).

البريد الإلكتروني: *so.sahnoune@univ-setif2.dz*

[2]- مخبر المجتمع الجزائري المعاصر؛ جامعة محمد لمين دباغين؛ سطيف2؛ (الجزائر).

البريد الإلكتروني: *a.abdslam@univ-setif2.dz*

تاريخ الإرسال: 2023/02/27؛ تاريخ القبول:2023/06/04؛ تاريخ النشر:2023/06/09.

الملخص:

لقد انصب هدفنا من هذه الأوراق البحثية على محاولة إماطة اللثام عن مآلات الإنسان في ظل هيمنة تقنية التواصل على الصعيد التكنولوجي من وجهة نظر فلسفة غربية، فاخترنا هابرماس *Habermas Jurgen* 1929 الذّي أخذ على عاتقه مَهمّة إضفاء صبغة نقدية للتواصل الراهن كبراديغم نقدي للتواصل الالكتروني. وزيجمونت باومان *Zygmunt Bauman* كناقد لراهن التواصل الاجتماعي. وتم الاعتماد على المنهج التحليلي لكونه من أهم مناهج البحث العلمي الذي يعتمد بالأساس على فكرتي التوضيح وإزالة الغموض من المبهمات. وعليه محاولة فهم ظاهرة التواصل الإلكتروني والاجتماعي في العصر

الراهن، وإبراز أهم خصائصها لما لها من أهمية بالغة ثم وضعها تحت مجهر ابستومولوجي نقدي.

الكلمات المفتاحية: التقنية؛ العقل الأداتي؛ العقل التواصلي؛ ابستومولوجيا النقد؛ التواصل الاجتماعي.

Abstract:

Our goal in these research papers was to try to unmask the fate of human beings in light of the dominance of communication technology at the technological level from the point of view of Western philosophy. We chose Habermas hurgen 1929, who took upon himself the task of giving a critical character to current communication as a critical paradigm of electronic communication. Zygmunt Bauman as a critic of social communication. The analytical method has been relied on as it is one of the most important and prominent methods of scientific research, which mainly depends on the two ideas of clarification and removing ambiguities from ambiguities. Therefore, trying to understand the phenomenon of electronic and social communication in the current era and highlighting its most important characteristics because of its great importance, then place it under a critical epistemological microscope.

Keywords: Technology; the instrumental mind; the communicative mind; the epistemology of criticism; social communication.

مقدمة:

اعتقد الإنسان أنّه قد وجد علبةً سِحريّة بِخَلْعِه رداء الأسطورة والخُرافة؛ لينعم بالعلم الذي يُمكّنه من السيطرة على الطبيعة، وأهوالها، لكن هذا العقل الأداتي جاء يحمل بين طيّاته مقولات تفيد الهيمنة والاستبداد.

لذلك تميز العصر الرّاهن وكنتيجة حتمية للتلاقح بين تكنولوجيات الاتصال، وتطبيقات شبكة الإنترنيت وإنتاج ما يسمى مواقع التواصل الاجتماعي، التي أصبحت بمثابة منابر ثقافية واجتماعية ذات أبعاد قيمية متعددة، وأضحت بؤرة تواصل والتقاء في فضاء عمومي افتراضي. هذا ما أدى إلى ظهور مدارس وفلاسفة استوقفتهم هذه الظاهرة فأخذوها تحت مجهر نقدي. وانصب جل اهتماماتهم بمآلات هذا التواصل الذي اتخذ ملمحا جديدا ، ومن بين هؤلاء: مدرسة فرانكفورت النقدية والذي ينضوي تحت جناحها من الجيل الثالث "هابرماس" *Habermas Jurgen*، ومن خارجها الفيلسوف البولندي رائد الفلسفة الاجتماعية "زيجمونت باومان" *Zygmunt Bauman*.

تبادرت إلى أذهاننا إشكالية تتمحور حول: إلى أي مدى استطاع كل من هابرماس وباومان تجاوز العقلانية الأداتية إلى فضاء العقلانية التواصلية؟ كيف انتقد كل من هبرماس وياومان هذا التواصل الزائف الذي غلف أرضية التواصل بين أفراد المجتمع؟

وللإجابة عن هذا التساؤل يجدر بنا أن نضع هذا المفهوم على طاولة النقاش والكشف عن سياقه المفاهيمي، فما هو التواصل لغة واصطلاحا؟

1-التواصل كمفهوم:

لغة: بالعودة إلى لسان العرب لجمال الدين ابن منظور، فالتّواصل: ضد التّقاطع، وضدّ التّدابر، والتّخاصم وضِدّ الهجر، لذلك فهو يأخذ معنى الاقتران والصّلة والجمع والإبلاغ والإعلام، ومنه فهو جميع أشكال التفاعل والتكامل والترابط والالتحام(ابن منظور، 1414، ص: 8).

أما اصطلاحا: فيعني استمرار العلاقة المبنية بين الأطراف،وهو انفتاح الذات على الآخر في علاقة حية حيث لا تنقطع حتى تعود من جديد.ومنه التواصل يعني «عملية انتقال من وضع فردي إلى وضع اجتماعي وهو يتضمن كل من الإخبار والإبلاغ والتخاطب»(مؤلفين، التواصل نظريات.. ، 2007، ص 8) وهو خاصية تميز الفعل البشري دون غيره قصد تحقيق التفاعل والدوران.

2-إرهاصات بداية تأزّم العقلانية التواصلية:

إنّ ما دفع "هبرماس" لنقد أسطورة العقل الحداثي متجاوزا بذلك أطروحات المدرسة النقدية هو نبذ العقلانية وتفكيكها من قبل فلسفات ما بعد الحداثة(أبو السّعود، 2002، ص 96)*poste modernité*، فمن دون شك أن هذا التدفق المعلوماتي قد أحدث انقلابا كونيا خطيرا، بحيث جعل النظام المعلوماتي كمركز لبقية الأنظمة المسيطرة على تفكير الإنسان وإدارة حياته والمتحكم الرئيسي في مسار الروابط البشرية (حرب، 2000، ص 10) بيد أنّ هذا البراديغم التواصلي قام بعملية خلخلة السلم القيمي واضطراب في الأدوار، فبات للكل قناته الخاصة، والكل بات مشهورا بغض النظر عن المحتوى الذي يقدمه،مما شكّل هاجسا حقيقيا يؤرق صفوة المجتمع؛ والنّخب الحقيقية والطبقة المثقفة، ومنه تراجع دور الإعلام التقليدي بفعل هذه الثورة التقنية إلى ما يسمى بطرق الإعلام السريع،الذي ينقل المعلومات بسرعة الضوء دون التحقق من صدقها وبالتالي خضوع المعلومة إلى الإشاعة،وتزييف الحقائق،أضف إلى إخضاعها لثورة الأعداد التي تُحوّل كل معطى إلى بنية رقمية.

هذه الأخيرة قد ألغت المسافات وتقبلت العلاقة الكامنة بين ما هو محلّي وكوْني مما جعل بل فيريليو *paul firilio* يقول: «أنّنا نشهد نهاية

الجغرافيا بحيث لم يعد هناك مكان ولا ثقافة بمعزل عن العالم»(حرب، 2000، ص 10) بمعنى أنّ هذا العالم تحوّل إلى قرية صغيرة بفعل شبكات التواصل، ومنه قضت الرقمية عن الحواجز المكانية، فما يحدُثُ اليوم هو الانتقال من هذه العولمة بكل ما تحمله من تقنيات، ومن فضاء الحواسيب والشّبكات والمواقع إلى فضاء جديد بيد أنّ هذه التقنية قد قلبت كل الموازين السابقة رأسا على عقب، معلنة الدخول إلى عالم جديد، يشكل قطيعة ابستومولوجية بين التواصل التقليدي والمعاصر.

انطلق "هبرماس" من سدّ الثّغرات الموجودة في النّظريّة النقدية،وكأنّه نصّب نفسه مُدافعا عن العقل والعقلانية، ومقاصد الحداثة، لذلك فقد وجد نفسه في مواجهة كل التيّارات المعارضة للحداثة أو ما يسمى بما بعد الحداثة (أبو السّعود، 2002، ص 95) أي أنّه انطلق من أرضية الواقع الاجتماعي، ومن مرتكزات الفلسفات ما بعد حداثية داعية إلى فلسفات هدمية، تفكيكية.

أ-الإفراط في التّواصل سبب في إلغاء التواصل:

بعكس ما كان الإنسان يتوقع بأن التدفق الهائل للثورة التكنولوجية التي شهدها العالم، ستلغي الحواجز بين الناس، وتعمل على تقريب المسافات البعيدة؛ حتى أن المجتمعات الحديثة عملت على الإعلاء من أهمية التواصل متأملة لإنتاج حلول للمشاكل التي تتخبط فيها البشرية،إذ علقت كل آمالها على الاتصال كمنفذ من الشقاق والتخاصم بين الشعوب،لكن سرعان ما انقلب عكس ذلك تماما،حيث أن التواصل قد زاد من هوّة الانفصال والتباعد بين الأفراد حيث أن الإنسان المعاصر بات يعيش في عزلة رهيبة وإحباط يؤكد هذا "هبرماس": «غير أنّنا في الوقت نفسه أصبحنا نعاني فيه من اللاتواصل،

والمفارقة أنّ كثرة وسائل الاتصال ألغت التواصل وغيّرت في سماته» (هابرماس، 2012، ص 248)خلف هذه المقولة تَكْمنُ عدّة دلالات أهمّها أنَّ التّواصل قد تغيّر وجهه المعهود سابقا؛وأن هذا التواصل التّقني الجديد قد قام بالقلب المفاهيمي للمعنى الحقيقي للتواصل، بل والأكثر من ذلك أنها قامت بإلغاء التواصل الحقيقي بسبب كثرة وسائل التواصل وتضخمها.

لذلك فقد حاول "هبرماس" تفعيل نموذج تواصلي وإحداث تكيف بين الأنا والآخر؛وذلك بإحياء نوع من التّفاعل بين الذّوات المختلفة قصد الانفلات من مقاصد التحديث الغربي؛ ومن تقوقع الفرد حول نفسه، وإحساس الإنسان بالاغتراب إزاء هذه الحياة المعاصرة التّي اتّخَذَتْ من الأداتية ميزة لها(محمد، 2010، ص 104).

وهذا هو المفهوم الأساسي الذّي شغل الفكر الهابرماسي والمتمثل في محاولة صياغة نظريته لمسألة الفاعلية التواصلية؛والبحث عن آليات التنسيق بين الممارسات والأفعال؛ التي بموجبها تسهيل عملية الربط والتواصل؛بحيث يصبح الآخر قادرا على ربط أفعاله بأفعال الأنا (أفاية، 1992، ص 186)، معتبرا بأن اللّغة منطقا جديدا للعلوم الاجتماعية،وأنّها الملجأ الوحيد الذي يمكن أن يحدث القطيعة مع الأطروحات التقليدية (فيري، 2006، ص 96) أي أنّ اللّغة هي الوسيط الذي ينسج الخيوط الداعمة والخيط النّاظم لفعل التواصل.

ب-التّواصل التكنولوجي من منظور نقدي:

إذا كانت الحداثة الأوروبية قد انتهتْ إلى ما يعرف بالعقل الأداتي *l'esprit instrumental*، ومنه إدانته من قبل التيارات المضادة للحداثة، ومن هذا الأساس جاءت دعوة "هبرماس" إلى إعادة الاعتبار للعقل

والتّأكيد على أهميته، مؤكدا أن سلبيات العقل الأداتي ليست مبررا كافيا للتخلّي عن مشروع الحداثة والأنوار وكل التقدم الذي توصلت إليه البشرية، وذلك لا يمكن إلا بإضفاء الجانب التواصلي المؤسس على آلية الحوار والمناقشة (أبو السّعود، 2002، ص 99).

إن انتصار العقلانية الرقمية أو التقنو-علمية التّي طرأت على الحياة المعاصرة،قد حوّلتْ الإنْسان إلى مجرد سلعة استهلاكية يعيش في كنف الآلة وخاضع لها،ومنه أدّت إلى طمس جوهر الإنسان،وإنتاج ما يُسمّى بالعقل الاستراتيجي الأداتي، وهو عقل لا يقوم على التّفاهم التّواصلي بل عقل يتميز بالهيمنة ويلغي الحوار، ولا يعترف بحق الآخر.

أمّا هدفه فهو ربحي بالدّرجة الأولى(الوائلي، 2019) ومنه أخذ على عاتقه مهمة إماطة اللثام عن الوهم العولمي؛ بحيث يجعل "النموذج التكنوقراطي"*Modèle technocratique* (HABERMAS, 2012, p. 224) هو النموذج الأسمى للعلاقة بين القرارات السّياسية والمعرفة العلمية، وهذا ما تميزت به مدرسة فرانكفورت وهي اعتمادها على آلية النقد واهتمامها بمآلات الحداثة والتقدم التقني غير المدروس، لمفرزات الحداثة.

وتأسيسا على ذلك يرى "هابرماس" أن العقل الأداتي بتكريسه لمظاهر التقنية،والتّقدم الصناعي يكون قد ساهم بقدر كبير في القضاء على إنسانية الإنسان وزحزحته من مكانته،كما أنّها أحدث شرخا كبيرا في المعنى الحقيقي للتواصل مما جعله يشكل أكثر خطرا على الإنسانية،كونه يسعى لخلق إنسان من نوع جديد هو الإنسان ذو البعد الواحد بتعبير "هربرت ماركوز" يحمل شعاره المميز «أنا أستهلك إذن أنا موجود»(مهيبل، 2007، ص 139) هذا الشعار الذي لم يكن سابقا

مع وعود الحداثة بتحقيق السعادة للإنسان،وتحقيق كل أحلام في التسيد على الطبيعة،والخلود .هذا ما قاد "هبرماس" إلى مساءلة المشروع الحداثي باعتباره مشروعا غير مكتمل.

4-العقل التواصلي كآلية للقضاء على العنف في مقابل العقل الأداتي:

في كتابه الموسوم "بنظرية الفعل التواصلي" يؤسس "هابرماس" لعقلانية جديدة اصطلح عليها بالعقلانية التواصلية *rationalité communicative* كتجاوز حتمي للعقل الأداتي(مصدق، 2005) فالعقل التقني أو الأداتي من وجهة نظره هو عقل استبدادي *esprit tyrannique* ووجه من وجوه المركزية الغربية التي بدأت بالسيطرة على الطبيعة وانتهت إلى السيطرة على الإنسان.

ممّا جعله بطبيعة الحالِ يسعى إلى التّخلص من آلية هذه السّيطرة الكامنة داخل المعرفة العلمية «يتجاوز مفهوم هبرماس للعقل بتخلصه من عقدة المفهوم العقلي الذي لم يعد جوهرا في ذاته»(بن تومي، 2013، ص104) بل تناوله من وجهة نظر ابستيمولوجية نقدية مُبتَغاها هو تَحْريرُ العقل من نفسه،وبالتّالي العمل على تحرير الإنسان المقهور من اللاّعقلانية الجديدة التّي رسمت ملامحها الآلة،بمعنى أن هذا العالم اليوم في ظل هذه الحضارة التقنية يَنْدفِعُ بَوَتِيرَةٍ سريعة غير مسبوقة نحو هاوية اللاّعقل والتشيؤ؛ عن طريق هذا العقل المسمى بالعقل الأداتي(مصدق، 2005، ص 11).

لذلك فكر "هابرماس" في إيجاد مكامن الحلول لهذا التّأزم باقتراحه لما أطلق عليه اسم العقل التّواصلي والذي ارتأى أنه الحل الأنسب والمخلص الوحيد لهيمنة ومركزية العقل التقني ولما كانت اللّغة هي الحجر الأساس لإرساء قواعد البناء التواصلي؛ ولا سيما باعتبارها

الوسيط الأساسي للتواصل بين الذّوات والذي اعتبرها "هابرماس" منطقا جديدا للعلوم الاجتماعية بل يؤكّد أن اللّغة هي الملجأ الوحيد الذي يمكن أن يحدث القطيعة مع الأطروحات التقليدية؛ يُفهم من ذلك أنّ الفعل التواصلي يعتبر أن اللغة هي الوسيط الأساسي للتواصل بين الذوات (AustinL, 2016, pp. 441–464) أي أن هابرماس قد أسس العقل التواصلي على جملة من الآليات تتصدرها اللغة باعتبارها الوسيلة الأساسية للتواصل والاندماج مع الآخر، فهو بذلك يكون قد مجد الدور المنوط باللغة من خلال إضفاء الجانب التواصلي جاعلا منها جسرا هاما للتفاهم بين الأفراد ودعوته للتحكم بالمفردات اللغوية التداولية في عملية الحوار والنقاش (بن خيرة، 2021، ص 262). ولمقصد هو تكييف اللغة التقنية بجعلها لغة إنسانية تخضع لسلم قيمي لا للغة العدائية والهيمنة، وجعلها بعيدة عن ظلامية البيروقراطية، أو هيمنة قوى الشركات متعددة الجنسيات. يطمح النقد إلى لغة يفهمها كل العالم شعاره الأساسي هو تحطيم جدران مركزية الأقوى ونبذ العنصرية،وتفادي مخالب الشقاق والدسائس العالمية. فحين يغيب التواصل تحضر مركزية الفكر ونفي وإقصاء الآخر باعتباره خطرا يجب التخلص منه. حاول "هابرماس" التنظير لمفهوم الآخر في ثنايا الفكر الغربي المعاصر من منظور تفاعلي تواصلي أخلاقي بعيدا عن فلسفة الإقصاء والتهميش والتمركز(بن خيرة، 2021، ص 262) كما أن انشغاله الجوهري هو العمل على إخراج الأنا من تقوقعها حول نفسها وتحقيق التواصل بين الذوات المختلفة ولا سيما بعد التنظير الحداثي لذات ديكارتية مغلقة حول نفسها لا تأبه للآخر.

إذ يطلب "هابرماس" أن نفكر بما نفعله حين نتكلم،فنحن نقوم دوما بمحاولة إقناع الآخرين بوجهات نظرنا وهذا يدخل ضمن الطبيعة

التبادلية للتواصل إلي يفضي إلى اتفاق عقلاني مشترك بين الذوات بالرغم من القيود التي نعايشها كالقيود الاقتصادية والايديولولجية وغيرها من القيود(هاو، 2010،ص 156). للانفتاح على الحوار والتعايش والتواصل بين جميع طوائف المجتمع رغم اختلافاتهم، وهي دعوة لثقافة الاختلاف، ونشر التواصل الايجابي لا السلبي المبني على الخلاف والنزاع والطبقية(ذيبون، 2013،ص 143) ومنه استطاع "هابرماس" التوفيق بين عالم اللغة والموجودات،فكلما كانت اللّغة صادقة وواضحة كلما تحقق مبدأ التعايش بين الأفراد؛ لذلك يمكننا القول أن مدرسة فرانكفورت استطاعت أن تدعم الفكر الفلسفي المعاصر بانفتاحه على الآخر والابتعاد عن الانغلاق والتعصب للرأي.

5- نقد العقل الأداتي خارج مدرسة فرانكفورت أو زيجمونت باومان في نقد التواصل الاجتماعي:

أ-موت الخصوصية كشر ناعم لا بد منه:

في عالم الانترنت تُقاد الخصوصية إلى المذبح من تلقاء نفسها مقابل الإعجاب المعروض،لذلك فما إن نهم بتسجيل دخولنا فإننا نعلن أنفسنا كرهائن للقدر،أضف إلى ذلك أن كل عمل مشين أخلاقيا إلاّ وينسب إلى صاحبه ومصدره(باومان،2017، ص 44)«لأن الانترنيت لا يمكن إرغامه على نسيان أي شيء تم تسجيله على الشبكة العالمية»(باومان، 2017، ص 44) بمعنى أن الصور أو الفيديوهات المسجلة في ذاكرة الانترنيت ليست كذاكرة الإنسان سرعان ما يطويها النسيان ،الذاكرة الرقمية تحتفظ بكل ما ينشره الإنسان،وكل خصوصية مزعومة تصبح متاحة للاستهلاك العام مدى الزمن.

لذلك يحدد باومان أهم النتائج التي جناها الإنسان جراء هذا التدفق الكمي لآليات للتواصل الاجتماعي والتي يحصرها في:

تآكل الخصوصية عبر الفضاء الرقمي بانتشار الصورة والفيديوهات المجانية تحت شعار «استعبد نفسك بنفسك»(باومان، 2017، ص 44) بمعنى أن هذا النوع من الاستعباد طوعيا يختار فيه الإنسان أن تنتهك خصوصياته مقابل شهرة وقتيه لا تدوم طويلا؛ بعدما كان الحفاظ الخصوصية من أهم المقدسات البشرية سابقا،وهذا ما أراد "باومان" تسميته بالشر الناعم. وبهذا يكون موت الخصوصية بمثابة سيلان للقيم الصلبة التي عرفها الإنسان قبل ظهور هذا العالم الرقمي ومنفذا لهتك الأسرار والبوح بها طواعية على شبكات التواصل الاجتماعي لإحداث التفاعل الذي لا يبدوا أنه ايجابيا بقدر ما يحمله من خطورة فأصبح المستخدم يظهر في قنواته يومياته الخاصة على العامة ويسرد قصصه لكل الناس دون مراعاة لأي خصوصية.

يُشبّه "باومان "المنشغلين بالفيسبوك كالمشتغلين بالطائرات من دون طيار؛ على الرغم من أنهما يبدوان مختلفين؛ إلا أنهما يجتمعان في الأهداف والغايات تحت إطار ما يسمى بالفرز الاجتماعي(باومان، 2017، ص 46) نتمعن جيدا هذا التشبيه الذي يؤكد بأن الغوص في عمق التواصل الاجتماعي كمن يمتطي طائرة تتحكم بنفسها تمت برمجتها إلى حيث لا نعلم اتجاهها بالضبط، فالمقصود بالطيران من موقع إلى موقع دون أن نعلم مصدر التحكم في تلك المواقع أو إلى أين ستأخذنا تلك الشبكات العنكبوتية. موقف "باومان" لا يختلف كثيرا عما رآه "لاش" بأن إعجاب الأفراد بالشهرة والقوة لا يقتصر على مجال السينما والتلفزيون فحسب وإنما يتعدى ذلك إلى مجال السياسة بوصفها عرضا

مسرحيا واقعيا ينم عن رغبة الإنسان الملحة في رؤية نفسه مستحوذا على تمثال القوة والشهرة، وتختزل هذه الشخصيات بكونها نرجسية تسعى إلى رغبة الذات في الارتقاء وتعني بكراهيتها لذاتها بقدر إعجابها بها، وهذا ما يطلق عليه كرايب *krayp* بالذات الزائفة في الحداثة المتأخرة(هاو، 2010، ص 165).

إن توسع التقنية وتربعها على المشهد المعاصر أدّى بالضرورة إلى طمس الجوهر الأساسي الذي يميز الإنسان وذلك شبيه بخضوعه إلى وثن التقنية التواصلية وإدمانها، ومنه فقد الإنسان المعاصر التحكم في آليات التواصل الحقيقية مستبدلا ذلك بتواصل افتراضي زائف تتحكم فيه أزرار الدخول والإغلاق؛ وتسجيل الإعجاب، لذلك يعبر "باومان" عن هذا الوضع قائلا: «ما عدنا نطور التقنية بقصد إنجاز ما ينبغي إنجازه، بل صرنا ننجز ما تتيح لنا التقنية الحاضرة إنجازه» (باومان، 2017، ص 61) تحت مضلة هذه المقولة تقبع معان كثيرة أهمها أن التقنية هي المنبع الذي نستقي منه معارفنا فأصبحنا ننجز في حدود ما تتيح وتسمح به التكنولوجيا الرقمية في مجال الابتكار والانجاز؛ وهنا تظهر تصورات أكثر خطورة وهي أن هذه التقنية المعاصرة تهدف إلى تجاوز الإنسان إلى ما بعد الإنسان، والعمل على القضاء على العنصر البشري بكل مقوماته من إبداع وتجديد وقدرات ذهنية، وحس وإدراك، أي أنها عملية فسخ حذر لإبادة العنصر البشري وتعويضه بالآلة. ومنه يمكننا القول إجمالا إن وسائل التواصل الاجتماعي مجرد فخ تسقط فيه كل المعاني الإنسانية والقيم الصلبة.

ب-راهن الإنسان في ظل أنطولوجية رقمية:

يرى "باومان" أن مارك زوكربيرج باكتشافه لفكرة الفيسبوك واستخدامه لأول مرة بين طلاب جامعة هارفارد سنة 2004 كان شبيها باكتشافه لمنجم ذهب، إذ يعتمد هذا الموقع على كل وسائل الجذب والإغراء، ويتيح للمستخدمين خاصية التواصل عبر الدردشة والتعليق كما يمكنهم من إنشاء صفحات تستخدم كوسائل إعلام لمنتوجاتهم(باومان، 2017، ص 46).

لذلك فقد اتخذ التواصل ميزات وخصائص التواصل الاجتماعي في ظل ثقافة السيولة يمكننا أن نرصد أهمها كما وضحها باومان:

1- يرى باومان أن الرقمنة تشبه فن القيادة فوق رمال متحركة على الدوام، يختلف فيها التواصل التقني عن التواصل التقليدي،فبعدما كان التواصل بمفهومه التقليدي يهدف بالأساس إلى إرساء علاقات دائمة لا يفرقها إلا الموت؛ تحولت اليوم إلى علاقات عابرة وسطحية وباردة كالجليد ميزتها الأساسية هي الحذف (باومان، 2004، ص 75)*Delete* .

2- من بين أهم خصائصه الأساسية التي أشار إليها هي التحرر من كل القيود والروابط الصلبة،فهي علاقات تنتهي بمجرد قضاء المصلحة، علاقات متغيرة ومتذبذبة وآنية(باومان، 2004، ص 16).

3- التواصل السريع جعل الإنسان يعتقد بأنه الإله الجديد، أو ما يسمى بالصنمية الالكترونية التي ستقدم له الجنة الموعودة على الأرض وتسهل عليه الخدمات التواصلية، وهذا ما يظهر جليا في الرسائل الفورية وغيرها من سبل التواصل السريعة(باومان، 2004، ص 46).

4-اكتسى التواصل مدلولات مغايرة بحيث يتحكم فيه اقتصاد العرض والطلب والسوق الحرة، ومنه تحوّل الإنسان إلى مجرد شيء وسلعة (جدراوي، الشر الناعم وموت الخصوصية، زيجمونت باومان). نفهم من هذه

التوليفة من الخصائص من منظور الفيلسوف "باومان" أن التواصل في عهد التكنولوجيا بات تواصلا سائلا ومميعا لا يدوم إلا تحت شعارات براغماتية تحكمها منطق المصلحة والاحتياج، تبعد عن القيم السامية والعواطف الجياشة التي كانت في السابق على التقنية، فطغيان هذه الوسائل التواصلية الباردة أدت بالضرورة إلى تفكك الروابط الأسرية، لذلك فأتوافق تماما مع هذا الطرح الباومني لأننا نعيش اليوم هذا التفكك بسبب طغيان هيمنة التكنولوجيا الرقمية.

6-روابط مزيفة رغم التواصل الدائم:

إن العلاقات المتينة والصلبة القائمة وجها لوجه بطريقة مباشرة ولا وسائط فيها، طالما تميزت بالاحترام المتبادل والتشاور،في حين تبدو العلاقات الافتراضية أكثر ميوعة وليونة لا تصمد طويلا(جدراوي، 2021، ص 73)إذ بإمكان أي فرد مشارك في علاقة إلكترونية إنهائها في ثانية وبمجرد الضغط على زر إغلاق الدردشة، ومنه أضحت فيها العلاقات التقليدية ثقيلة ومملة عكس الافتراضية التي تصبغ بطابع الحرية والتغير الدائم والنشاط.

ومنه نلحظ أن الإنسان المعاصر قد تخلى عن العواطف الجياشة التي كانت تميز ارتباطه مع الآخر، فحتى الابتسامة الحقيقية قد فاستبدلت في لغة التواصل الافتراضي إلى مجرد سمايلات منتشرة على شاشات الهواتف المحمولة والحواسيب؛ والتي تعني باليابانية كل ما يكتب بالصور،وهذا إن دل على شيء إنما يدل على اختصار المشاعر الإنسانية في مجرد صورة يهيمن عليها الطابع الاستهلاكي(جدراوي، 2021، ص 75). فلا يمكن لأحد إنكار أن الإنسان قد حاد عن معانيه الروحية السامية وعن طموحه مما آل إلى زوال الإنسان وموته في الخطاب

الفلسفي المعاصر وإلى هشاشة الروابط الاجتماعية وإلى ميوعتها وسيلانها(جدراوي، 2021، ص 73) بتعبير باومان.

يرى باومان أن العقلانية السائلة توصي بتحرر الإنسان من الأعباء الثقيلة، فحتى الحب الذي كان يتكئ على شعار جوهري "تعاهدنا ألا يفرقنا إلا الموت" بات من ثقافة الالتزام والواجب؛ وتعكيرا لصفو الحياة والحد من التحرر؛ ومنه غياب الحب الحقيقي الذي اتصف بالصلابة والبناء والعمر الطويل ليحل محله شعار معاير تماما ألا وهو «لا تقع في المصيدة»(باومان، 2016، ص 99) بمعنى الدعوة إلى الحرية، واجتناب فخ السقوط في كل ما يربطك بالشريك، فكلما زادت الروابط كلما كان الفرد معرضا لمخاطر الالتزام والواجبات، فلا يمكن مقارنة العلاقات المتواجدة في الشبكات والتي ينحدر فيها الفرد بخفة ودون قيود وبين الشرك والفخ الذي تنصبه الروابط الثقيلة الشبيهة بالسجن (باومان، 2016، ص 68). فيما أطلق عليه بالإنسان الجنسي «تتلازم ملامح الإنسان الاستهلاكي اليوم بما يسميه باومان بالإنسان الجنسي بل وقد ولدا معا لدرجة أنهما وإن رحلا فسيرحلان معا الكتف بالكتف والقدم بالقدم»(باومان، 2016، ص 86). إن الوقوف عند الأبعاد المضمرة لهذه المقولة تخفي معان خبيثة، أهمها أنه في زمن الاستهلاك اليوم وقد تحرر الإنسان من مهام البناء والتعمير وانتقل إلى احتقار صفات البناء فبإمكانه اليوم إقامة علاقات بطرق مبتكرة معاصرة لكن دون التعلق بالآخر، حيث أن ما يميز الحياة الاستهلاكية هو الخفة والسرعة والتنوع والجدة(باومان، 2016، ص 86)، أي إحداث قطيعة بين العلاقات التي كانت سائدة في الماضي وتحرر الإنسان من كل الالتزامات والروابط الدائمة التي كانت تنضوي تحت إطار الزواج. وبناء عليه فإن خضوع

الإنسان اليوم لرغباته ولمنطق الاستهلاك يجعله يتأرجح بين كفة الكم والكيف تحت شعار: «عندما يخذلك الكيف، فإنك تطلب النجاة في الكم وعندما يكون الدوام غير معقول ولا مقبول، فإن سرعة التغيير هي التي يمكن أن تنجيك»(باومان، 2016، ص 67). فالتواصل اليوم في عهد التقنية عبر الإعلام هو مجرد حدث عرضي وأمن زائف وإشباع لرغبات تواصلية تنتهي بانتهاء الدردشة وإغلاقها، فهذا العصر الذي تبرق فيه الرسائل دوما والإشعارات وتتلهف بشدة لتلق رسائل أخرى تشغل أصابعك على الدوام للرد على تلك الرسائل وتضغط المفاتيح فتتصل في كل لحظة بأرقام جديدة لترد على مكالمات مختلفة عبر مواقع متعددة فايبر واتساب وفيسبوك وغيرها لتظل على اتصال طوال النهار حتى وإن كنت في حالة تنقل وسفر، ومنه قد أصبح المكان الذي لا تحمل فيه هاتفك هو اللامكان بعينه، فحتى في حالة السفر فأنت موجود داخل الشبكة.

لكن رغم ها التواصل غير المنقطع بين الأفراد إلا أننا نشهد علاقات جليدية زادت من حجم الهوة،وابتعاد الناس عن بعضهم البعض حيث أن أفراد العائلة يمكن تواجدهم في ذات المكان رغم أن التواصل مع بعضهم غائب يقول "جون آيري" في هذا المقام: «تتضمن علاقات الحضور المشترك دائما إلى الاقتراب والابتعاد، والقرب والبعد والحقيقة والخيال»(باومان، 2016، ص:100) بمعنى أن هذا القرب الافتراضي المزعوم المتاح على الدوام بفضل التقنية عمل على قلب موازين التواصل لصالح الأبعاد والخيال وحل محل الشوق والاقتراب الحسي، وحلت رسالة المسنجر مكان الرسالة البريدية الورقية التي كانت تدخل الفرح والسرور لقلب المتلقي، والهاتف المحمول محل الالتقاء والتزاور وحتى

الجلسات العائلية والسهرات والملتقيات أصبحت تتحكم فيها الشبكة الإلكترونية.

خاتمة:

في خِضمّ ما تم توصيفه؛ يتّضح جليًّا أهمية الحياة الواعية بالنّقد وعدم إمكانية أيّ منا التشكيك في أهميته كضرورة حتمية سواء عند الفلاسفة أو عامة الناس.

فهذا التّواصل غير المدروس في الأهداف والأبعاد، جعل من الجميع مسؤولا عن وضعه تحت محك نقدي قصد إبراز أهم سلبياته وإيجابياته في الحياة اليومية، فنحن فعلا نتواصل لكن بطريقة عشوائية تكاد تعود بنا إلى تواصل غوغاء العصور الحجرية، فنحن نشهد اليوم قنوات تعمل على تفريخ مشاهير ونجوم في كل ثانية، وفي المقابل تهمش إطارات ونخب تستحق الظهور على الساحة. كذلك إن تدفق المعلومة من دون رقابة ستجعلها تنزلق في هاوية التشكيك؛ وعُرضَةً للإشاعات قصد مواكبة ما يسمى بالسبق الإعلامي أو الترينذ بلغة التكنولوجيا. لذلك فلقد اتخذ الفيلسوف "هبرماس" من التواصل كأطروحة ابيستيمية ثاوية خلف إشكالات معاصرة مُوَجِّهًا سهام نقده إلى ما يفعله التواصل الهش عبر شبكات عنكبوتية سرعان ما يزول، معتبرا أن النقد ضرورة حتمية من أجل إرساء قواعد التّغيير والتقدم بحيث يكون النقد جهدا عقليا وعمليا يتجه بالأساس نحو عدم تقبل الأفكار عقلا وقولا. وما يمكن قوله إجمالا والإدلاء به.

إن التقنية تجعل الإنسان تحت ضغط الآلة التي تفرض عليه ألوانا جديدة من السلوك وتقوم بتقييد مبادراته الشخصية وإرادته الحرة تصبح بمثابة جهاز إعاقة تحد من فاعليته وديناميته كبشري ومنه الحد من

إبداعاته ونشاطاته الذاتية ومنه الحط من شأنه كإنسان له قدرات وميكانيزماته العقلية، ومن هنا تتجلى ظاهرة التشيؤ أو الحوسلة بتعبير عبد الوهاب المسيري، والتي تعني تحويل الإنسان إلى مجرد وسيلة ومنه إحساس الإنسان بالاغتراب في ظل هذا المجتمع الصناعي التي تحكمه الآلة وخضوعه لنظام إداري بيروقراطي.

حاول كل من هبرماس وباومان إضفاء صبغة منطقية لهذا التواصل اليوم بإخضاعه للتأمل النقدي قصد إعادة النظر في آلية التواصل قصد نشر ثقافة الاتصال لا الانفصال هذا الأخير والذي بدوره يعمل على توطيد الصلات بين الأفراد والمجتمعات لنشر ثقافة الحوار المنتج، وإنعاش حقل التعايش السلمي، ومنه خلق تلاقح فكري الذي بموجبه ينتج إشعاعا حضاريا يمد من جسور تآخي المجتمعات ولا يهدمها، بمعني تكييف وترويض لغة التقنية بجعلها لغة إنسانية تخضع لسلم قيمي لا للغة العدائية والهيمنة، ولا تقوم على ظلامية البيروقراطية أو هيمنة قوى الشركات متعددة الجنسيات، إذ يطمح النقد إلى لغة يفهمها كل العالم شعاره الأساسي هو تحطيم جدران مركزية الأقوى ونبذ العنصرية، وتفادي مخالب الشقاق والدسائس العالمية؛ لذلك فدورنا يتمثل في تكثيف الجهود لمحاربة آليات التواصل الزائف والمبهم، وقطع الخيوط الواهنة التي تعمل على فك الروابط الإنسانية وتحركيها كمسرح الدمى، وعلينا التفكير بجدية في الطرح الهابرماسي والباومني لمحاولة فهم المآلات البعيدة لهما قصد توليفها على ساحتنا العربية لأننا جزء لا يتجزأ من هذا العالم.

قائمة المصادر والمراجع:

1- أفاية محمد نور الدين. (1992). **الحداثة والتواصل، الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة**. بيروت: إفريقيا الشرق.

2- آلان هاو. (2010)، **النظرية النقدية، مدرسة فرانكفورت**. ترجمة: ثائر ذيب، القاهرة: المركز القومي للترجمة، دار العين للنشر.

3- بن تومي. (2013). "تواصل القراءة في مفهوم العقل التواصلي". **مجلة علوم اللغة لآدابها**.

4- جان مارك فيري. (2006). **فلسفة التواصل**. ترجمة: عمر مهيبل، الجزائر: منشورات الاختلاف.

5- جدراوي عفاف. (2021). الشر الناعم وموت الخصوصية، زيجمونت باومان. **مجلة الخلدونية للعلوم الإنسانية والاجتماعية**، ص: 75.

6- حرب علي. (2000). **حديث النهايات، فتوحات العولمة ومآزق الهوية**. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي .

7- حسن مصدق. (2005). **يورغن هابرماس ومدرسة فرانكفورت، النظرية النقدية التواصلية**. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

8- ذيبون حياة. (2013). "حديث النهايات العقل التواصلي بديلا عن العقل الأداتي"، **مجلة مقاليد**، العدد:5، ص: 143.

9- زيجمونت باومان وآخرون. (2017)، **قوة الكلمات، حوارات وأفكار**، ترجمة: لطيفة الديلمي، بغداد: دار المهدي.

10- زيجمونت باومان. (2004)، **العلاقات في زمن الاستهلاك، حياة بلا روابط**، ترجمة: فاطمة نصر. القاهرة: إصدارات سطور.

11- زيجمونت باومان. (2016). **الحب السائل**. ترجمة: حجاج أبو جبر، هبة رؤوف عزت، بيروت: شبكة العربية للأبحاث والنشر.

12- زيجمونت باومان. (2017). **المراقبة السائلة**، ترجمة: حجاج أبو جبر، هبة رؤوف عزت. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

13-عطيّات أبو السّعود. (2002). **الحصاد الفلسفي القرن العشرين**. القاهرة: منشأة المعارف.

14- ماجد رجب العيد سكر. (2011). **التواصل الاجتماعي**. الجامعة الاسلامية للدراسات العليا، كلية أصول الدين.

15- مجموعة مؤلفين. (2007). **التواصل نظريات ومقاربات**. ترجمة: عز الدين الخطابي، الدار البيضاء: منشورات عالم التربية.

16- مفتاح بن عمر بوعلام بن خيرة. (2021). صورة الآخر في الفكر الفلسفي الغربي المعاصر، يورغن هابرماس أنموذجا، **مجلة مقاربات فلسفية**، المجلد:8، العدد:1، ص:262.

17- ابن منظور الأنصاري. (1414). **لسان العرب**. بيروت.

18- مهيبل عمر. (2007). **من النسق إلى الذات**. الجزائر: منشورات الإختلاف.

19- ابن ناصر الحاجة، (2010)، **إشكالية التواصل والنقد الاجتماعي عند رواد مدرسة فرانكفورت يورغن هابرماس أنموذجا**، جامعة وهران كلية العلوم الاجتماعية قسم الفلسفة، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، وهران.

20- الوائلي عامر عبد زيد. (2019). البيوتيقا والتقنية والتحولات المعاصرة، هبرماس أنموذجا. **مجلة الاستغراب**، العدد:15، ص: 5.

21- يفوت سالم، هبرماس ومسألة التقنية، (16 04, 2015). **مجلة حكمة** *https://hekmah.org*

22- يورغن هابرماس. (2012). **الأخلاق والتواصل**. بيروت: التنوير للطباعة والنشر.

23- AustinL, l. d. (2016, automne*). Habermas,'illocution et la perlocution dans le modèle communicationnel**. la revue Philosophique***, 43(2.), 441–464.

24- HABERMAS, J. (2012). ***La Constitution de l'Europe***, Paris, Gallimard, «NRF Essais ». open edition, 224.

25- *https://la-philosophie.com/habermas-la-communication*. (s.d.).